في الجزء السابق أشرتُ إلى ظاهرة الهجرة وقدّرت أثرها على الحياة السياسية في الأردن، باختصار هناك نزعة جماعية للهجرة سواء بشكل كامل أو السفر لأجل العمل وهي بمثابة هجرة جزئية، وفي الحالتين يتم تفريغ الدولة من المساعي لتحسين الأوضاع داخلياً أو إصلاحات سياسية أو حقوقية أو خدمة القضية بشكل مباشر. كما تحدثت عن أولوية فهم أثر مثل هذه الهجرات على الشتات الفلسطيني، فهو عندما تستقطبه دول الخليج يبتعد أكثر فأكثر عن قضيته بطرق مباشرة (مثل الذهاب إلى دول تمنع أي تعبيرات سياسية) أو غير مباشرة (عبر خدمة مشاريع قُطرية متفقة مع سياسات الولايات المتحدة) بالإضافة لإضاعة عامة للجهد الفلسطيني وتشتيته بدل من تركيزه في الأردن وهو الأخ الجغرافي لفلسطين.

بما أن هذه السلسلة تحاول فهم أسباب الخمول السياسي في الأردن عبر فهم التجربة الفردية دون اللجوء إلى التفسيرات السائدة أو النظر من الأعلى فقط، وبما أن حديثنا يتعلق بالسياسة لا بد وأن نلقي نظرة على الحياة الحزبية أو بالأحرى على انعدام الحياة السياسية، لكنني سأفعل ذلك من وجهة نظر الأفراد. بهذا أعني أن المقالة لن تقيّم الأحزاب أو تحصي مواقفها تجاه القضية، ومع أن ذلك ضروري لكنه لا يتماشى مع هدف السلسلة الذي يسعى لقراءة ملتصقة بالتجربة المباشرة، لأن السلسلة تأتي في محاولة الإجابة على السؤال الذي يؤرق أي مواطن في الأردن وهو سؤال عن سبب عدم قدرتنا الانخراط في المقاومة ضد الكيان والأخص في هذه المرحلة لماذا فشلنا في التحرك للضغط بهذا الاتجاه.

"فُكّك من الأحزاب"

العقم الحزبي هو سبب آخر للخمول، يمكننا الاستدلال على ذلك من عدة أخبار وأحداث. أظن أن هذه الدعاية الانتخابية تلخّص الرأي العام إزاء الأحزاب، فهي تعرض حقيقة نفور المواطنين خشية التبعات التي تؤثر على الحياة وظيفياً وشخصياً. التبعات لا تصل إلى القمع الخليجي أو القومي لكنها تخلق مسافة كافية بين الناس والأحزاب، وتؤدي إلى انعدام الثقة بالآلية الانتخابية. بالطبع قد يزعم السياسيون وأعضاء الأحزاب أن العملية تستحق فرصة وأن هذا الاستياء والنفور لا داعي له، ومن المضحك في بعض الأحيان السماع لهم يجادلون كما لو أنهم في دولة ديمقراطية عريقة لا تحت نظام ملكي مطلق. لذلك وربما لأسباب أخرى هم الأولى بفهمها ما زالوا غير قادرين على إقناع الفرد على التصويت لهم أو إقناع الأغلبية على إعطاء الأولوية للفكر السياسي بدلاً من الفكر العشائري أو المصلحي الضيّق. ومع أن الحرب القائمة قد أشعرت الجميع بضرورة التحرك والانخراط أكثر في الحياة السياسية إلا أن نسبة الأصوات في الانتخابات بالكاد تجاوزت 30% وهذا الرقم التعيس يدل على أن الشعب حتى في أقصى درجات تعطشه للتأثير بسياسة دولته لا يعتبر البرلمان السبيل.

يمكننا تخطي الجدال حول نجاعة الصياح تحت القبة وننظر كيف أثبتت الحرب الخواء الحزبي تجاه الإبادة دون أدنى شك على أرض الواقع. اكتب هذه التدوينة ونحن على مشارف سنة كاملة من المذابح، لم تتمكن الأحزابُ خلال السنة من تنظيم أي نشاط سياسي ضاغط أو أن تتحالف مع بعضها بأي طريقة نافعة، وهذا في أسوأ الأحوال يعني أن الدم النازف لا يعنيهم كثيراً لكن هذه المبالغة مجحفة لذا لنتوجه لأحسن الظنون والتي تعني أن الأحزاب لا ترقى لتمثيل الشعب أو تحريكه، حتى لو فازت في انتخابات البرلمان وحتى لو حاول أنصار الأحزاب إقناعنا بأن هذا أول برلمان في التاريخ وعلى ضحايا العدوان الصهيوني أن يصبروا لانتهاء الدورة كاملة للحصول على الدعم المطلوب. وربما فِعل الشهيد البطل ماهر الجازي الذي سبق الانتخابات بيومين جاء بتوقيت ملحمي ليوضّح هذه الحقيقة، حقيقة أن الشعب يتوق للمزيد من الأبطال أمثاله لا إلى برامج الواقع تحت القبة، وأن النواب لو كانوا قادرين على إيصال أصوات الشعب فعلاً في آلية نافعة لصارت السياسات توفّر السبل لأمثال هذا البطل بدلاً من نهجها الحالي الذي أجبره على الذهاب والقتال بصدره العاري، والسير بخطوات ثابته نحو استشهاده المحتم مع أنه يستحق أن يحاط بكتيبة كاملة من الأبطال لتحميه وتعيده سالماً لأهله. وبما أن أحرار الشعب بشقيه يكترثون حقاً ويشعرون بأن عليهم فعل شيءٍ ما، أي شيء، تستغل الأحزاب هذه المشاعر الصادقة وتصرّفها في الانتخابات، أي أن الأحزاب تعمل على تثبيت نظام السياسة الذي يشعر المعظم بأنه لا يقدر أو لا ينوي على مواجهة الكيان بتاتاً مما يستدعي بطولات فردية. ومن المثبت قطعاً أن كل الأفكار الحراكية التي مهدت لهذا الخمول هي ما زالت الأفكار الدائرة في النقاشات العامة، بدلاً من استثمار الرغبة العارمة في الموقع الصحيح وهو لإيقاف الحرب عن طريق الإبداع في الضغط على الحكومة.

لفهم التجربة الفردية وكي نجيب السؤال العام للسلسلة يجب أن نتفكر بطبيعة الحراكات والأحزاب والحياة المدنية. في كل شعب نجد فئة قليلة تهتم بالسياسة إلى حد الانخراط المباشر بها وحولها دائرة أكبر تبدي الاهتمام البالغ دون الانخراط المباشر، هاتان الفئتان لا تشملان الشعب كله حتى في أكثر الدول ديمقراطيةً وحتى عندما تكون المشاركة مرتفعة فهي بالطبع لا تصل إلى 100% لكنها تقترب كثيراً في العديد من الدول. لذلك لا أميل إلى فكرة تقريع "الشعب" بأكمله لأنه لم يتحرك لإيقاف الحرب فالكتل البشرية لا تتحرك بهذه الطريقة، والشعب حتى في حالة الحرب لا يتحوّل إلى مجموعة من المقاتلين، الأغلبية في أحسن الأحوال تتحول إلى حاضنة لمقاومة أو إلى مواليين أوفياء للحكومة ويخدمون الجهد العسكري بما يملكون من قدرات وموارد.

POV المواطن

مما سبق لنا أن نتخيل مجموعة الأفراد التي نحاول فهم خمولها، فنجد أولاً أن المعظم لا يكترثون بالسياسة، لذا لا غرابة في أنهم وقفوا مثل غزالٍ تسمّر وسط الشارع أمام أضواء سيارة مسرعة نحوه عند اندلاع حرب مجاورة تخص نسبة كبيرة من الشعب وهم الفلسطينيون بشكل مباشر والأردنيون بشكل غير مباشر. هذه الأغلبية هي التي تتساءل اليوم عن الخذلان أو تجيب عن السؤال بالولولة أو يتهمها من هم خارج الدولة بأنهم لم يقوموا بالواجب، وبالعادة أولئك من الخارج يستخدمون نفس المبررات إذا سألتهم لماذا لم يتحركوا أو إذا تحركوا لماذا لا يلقون بكل وزنهم في هذه الحرب. لا يجوز تحميل هذه الفئة كل اللوم لكن شيئاً منه ضروري، خصوصاً لأن الشعوب العربية وخصوصاً في الدول التي تعاني من عدة مشاكلٍ لا تملك رفاهية الابتعاد عن السياسة. بالنسبة لهؤلاء الأفراد يكون الاهتمام بالسياسة هو في متابعة الأخبار والظن بأن سماع المحللين يسمن، وما هي الأخبار سوى مجموعة من السرديات المتضاربة؟ الأخبار بالكاد توصِل للفرد الحقائق وتهتم بالدرجة الأولى بتغليف تلك الحقائق بسردية معينة، فتصبح مجموعة الحقائق إثباتاً لسرديتين مختلفتين.

وبما أننا تأكدنا مع هذه الحرب أن الحكومات في المنطقة لا تكترث حقاً بالشعب الفلسطيني -وهنا تهمة عدم الاكتراث ليست مجحفة بتاتاً لأننا لا نشير إلى المواطنين العُزّل المغلوب على أمرهم- ستكون سردياتها جميعاً لا تحرك المتلقي إلى حالة الاستنفار والتأهب، مثل مطلع الربيع عندما كُتبِت السردية لتحريك الشوارع العربية، وإنما اليوم تكتب للمساهمة في حالة من الإحباط وحتماً ستحاول الحكومات استثمارها لاحقاً في مواضع أخرى.

المتبقي بعد استثناء الجموع من النافرين من الأحزاب والسياسة والنافرين من الأحزاب والمهتمين بالسياسة هم أولئك المنتمين إلى الأحزاب بشكل مباشر أو إلى تيارات فكرية وقد تخطى اهتمامهم الحد الأدنى من متابعة الأخبار. قبل أن نفعل ذلك علينا أن ندقق قليلاً بأثر النفور على المهتمين بالسياسة، حزبيون أو غير ذلك، فهم بالطبع سيشعرون بالإحباط وقد تنعزل هذه الفئة أكثر فأكثر عن المجتمع وتتقوقع في الأحزاب أو في "صالونات ثقافية" وهذا يصب في ظاهرة معادلة الفكر، ويمكننا الإفاضة بهذه النقطة لكن موضوع المقالة لا يسمح بذلك. المطلوب هو إدراك فكرة أن النفور من السياسة والفكر يصنع حلقة تغذي نفسها، مثال آخر على ذلك هو أن الأفراد المهتمون بالسياسة أو الحزبيون يصبحون بالنسبة لشعبٍ يحاول تفادي السياسة منفرون هم أيضاً. كما أن النفور يولّد المزيد من النفور لأن الثقافة ببساطة تعمل بهذا الشكل، أي أن الأفراد تُحركهم ثقافتهم كما لو أنها قوانين فيزيائية في الكثير من الأحيان، وللأسف بدلاً من تحليل الثقافة يسعى المثقفون المنفرون لإلقاء اللوم المطلق على الشعوب أو الحكومات بينما يشكلون لأنفسهم حلقات من المجاملات أو ربما يضعون الخلافات الشخصية والدراما في المقدمة والفكر في المقعد الخلفي. وكذلك قد يظن بعضهم بأن الحل هو في التنكر لموقعهم عبر التواضع الزائف أو التصابي التصنيفي في انتقاد سائر المثقفين وفي التركيز المفرط على قربهم من "الشعب" بدلاً من سعيهم نحو الحكمة.

لنتحدث عن المنفرين من الحزبيين والمثقفين، في دولة مثل الأردن نجد أن التيارات السياسية -ربما مع شيء من التبسيط لكنه ليس تبسيطاً مبالغاً به- قد تصنف إلى أصناف قليلة جداً، وتصنيفها صعب لأنها لا تملك فكراً متطوراً على أي حال. أكبر هذه الأصناف المعروفة هي صنف إسلامي وهذا الصنف يضم الإخوان المسلمين وقلة سلفية، وصنف حكومي ليس سوى وكيلاً للنظام الحاكم بكل أذرعه، وصنفٌ عنصري يتقاطع مع الصنف الحكومي بالكثير لكنه يحمل بذور للشقاق، وصنفٌ يساري وبالأخص ماركسي. (إذا شعرتَ بأن هناك تيار يستحق وصف التيار ولم أذكره هنا ولم تتعرض له المقالة فأنا مهتم بالاطلاع على رأيك ودلائلك)

عند عرضهم بهذا الشكل قد يبدو أن الأعداد مهولة لكنها ليست كذلك بتاتاً، هي فقط كثيرة لأننا ندقق النظر فيها لكن الغالبية تنتمي إلى تيار مبهم سنتحدث عنه في آخر المقالة. أما هنا دعنا نتفكر قليلاً بالخمول للمهتمين عند ولوجهم في أيٍ من هذه التيارات، أولاً إذا سار الفرد في المسلك الإخواني فهو مباشرة يعود إلى حضن الحكومة كما شاهدنا مؤخراً، فهو لا يشكل أي معارضة حقيقية لها وفي حال شكّل ذلك يتم سحقه مباشرة وبعد ذلك يتذرع بالسحق ليبرر تنازلاته ونعومة معارضته. أما التيار الأكثر سلفية فهو قد يجد ضالته في الهجرة الجهادية، وهي تعيدنا إلى الجزء السابق من المقالات، هذه الفئة يبدو وأنها لا تتحرك إلا بشرطين: الأول هو أصابع استخباراتية في مؤخراتها والثاني هو دمار الدول. تتحرك هذه الفئة وفق نوع الأصابع، فمثلاً عندما كانت الدول الخليجية تتعطش للدماء السورية هاجر أبناء هذا التيار للقتال هناك. أما الذين تكاثروا بسبب دمار العراق سابقاً فقد جاء بعضٌ منهم إلى الأردن وقاموا بتفجيرات إرهابية لكن دون استخبارات توجههم نحو الأردن لم ينمُ هذا الفكر لأنه لا ينمو إلا في الخراب. لم تشكل هذه الفئة الإرهابية في أي لحظة خطراً جاداً على الحكومات دون أن تكون مدعومةً من حكومات أخرى لأن ردة فعل الشعوب أثبتت أنها لا "تستيقظ" كما يتمنى السلفي بل تلجأ إلى الحكومات العلمانية التي يكفرها السلفي، لا داعي للإطالة في الحديث عنهم لكن تكفي الإشارة إلى أشهرهم سابقاً في أفغانستان ولاحقاً في العراق وسوريا.

في أفغانستان تمكن المجاهدون من دحر الاحتلال السوفيتي بدعم غربي، بعد ذلك عندما تجرأ بعضهم على مهاجمة الولايات المتحدة -على الأقل وفق السردية الرسمية وهي مليئة بالثغرات- اختفت فجأة كل الشراسة والبطولات عندما احتلتهم الولايات المتحدة. في العراق وجدت الشراسة لكنها بالتدريج انتقلت من مقاومة ضد الاحتلال إلى نزاعات أهلية طائفية وأخيراً انصهرت في داعش، وفي سوريا كانت شرسة عندما دعمها الجميع ثم صارت أشبه بعصابات بعد سحب الدعم.

باختصار، يمكننا تخيل الفرد الذي مال إلى مثل هذا الفكر في الأردن وكيف سينتهي به المطاف إما خارج الدولة، وهو بذلك لا يختلف عن المهاجر الذي لا يركز جهوده في تغيير الحال في دولته، أو لو كان في داخلها فهو لن يفعل شيئاً ذو وزن دون دعمٍ خارجي. لذلك يجب التنبه في سياق العداء مع الكيان أن صعود مثل هذه الحركات في لحظات لاحقة وفارقة وخصوصاً لو كانت اللحظات تلك تشهد توتراً بين الحكومة الأردنية والصهيونية، فهذه الحركات ستكون أكثر أداة مطيعة للكيان في مؤامراته وأغلب الظن ستتصدّر نفسها كبديل لتستقطب من خاب أمله بالتيار الإسلامي. وهذه الطوعية للتعامل مع مخابرات أجنبية تتناسق مع الفكر التكفيري، لأن التكفيري بعد نزعه حرمة دم المسلم لا يواجه صعوبة أخلاقية في تلقي الدعم من غير المسلم ضد حكومته الإسلامية ولن يمانع من الاستعانة بالصهيونية لضرب الحكومة الأردنية كما فعلوا في سوريا.

أما اليوم ما الذي نجده من أمثال هؤلاء؟ منذ بدء الحرب لم يتميّز هؤلاء بأي شيء حراكي بل العكس، لقد كانت أولويتهم الطعن بظهر المقاومين في فلسطين أو في صدور المقاومين في جبهات الإسناد، بعضهم كان يثبّط الحراك في الشارع تثبيطاً صريحاً لا يتماشى مع بكائه الدائم ضد الدولة الحديثة، وعندما جاء وقت الانتخابات في النظام العلماني الذي يبذل أمثال هؤلاء أعمارهم في الطعن به، فجأة أصبحوا ديمقراطيين أيضاً. للإنصاف هناك من وقفوا باللسان مع المقاومة الفلسطينية لكنها وقفة متعالية. هذا التناقض يشير إما إلى أننا نتعامل مع مخبرين أو أن هذا التيار مدمر لذاته، وربما في تفجيره لذاته تناسقاً نظرياً أيضاً.

على أي حال نرى أن الإصلاح والتغيير عن طريق الإسلام السياسي الموجود حالياً مسدود في دولة مثل الأردن، لننتقل إلى التيار الحكومي ونمر عليه سريعاً لنقول في سياقنا هذا أن هذا التيار لا يعوّل عليه في أي نوع من الإصلاح أو الثورية، فهو بالحرف جزء من الحكومة وعمله هو في تثبيت أركانها لا زعزعة أي فكرة أو سردية حكومية. من أول الحماقات على ألسنة الإخوان بعد فوزهم هو نسخ منشور يقول بأن الحكومة الأردنية سمحت للإخوان بالفوز لترسل رسالة إلى هذا التيار بأنه لم يكن مفيداً لها، هذه الحماقة تتجاهل حقيقة أن "التيار" الذي يمثّل الحكومة لا يحتاج إلى انتخابات ليصل إلى السلطة، هو في السلطة أصلاً. أتحدث هنا عن الجانب الفكري لا المصالح الفردية لهؤلاء.

المتبقي من التيارات الشائعة هو التيار العنصري، وهذا التيار يتقاطع مع التيار السابق في الكثير من الآراء والامتيازات أيضاً إلى حدٍ قد يبدو معه أنهما تيار واحد فقط ويتعامل الكثيرون معه كذلك، لكنني أزعم أن هناك شيئاً في العنصرية الأردنية يتعارض مع الدولة، وهذا ما يخجل من التصريح عنه أولئك العنصريون أو يخشون من فعل ذلك لأسباب واضحة، وهو الشيء الذي يدفعني لتمييزهم عن "الوثنجية".

بالنسبة للتيار العنصري قد جاءت هذه الحرب بفرصة ذهبية ليفصح عن حقده على المكون الفلسطيني، ولو تتبعنا طبيعة الاعتقالات للشخصيات التي دعمت المقاومة بالكلمة وتغاضيها عن أولئك العنصريين الذين يثيرون النعرات ضد الشعب الفلسطيني من المنطقي أن نستنبط رضا حكومي على مثل هذه الإساءات، موضوع التفرقة وفق الأصول يحتاج إلى مقالة منفصلة لكن لا شك بوجود ضوء أخضر للعنصرية في هذه الحرب. لدواعي هذه المقالة نكمل ونقول بأن المسألة تتعقد عندما نركز أكثر في أفكارهم التي تتخبط عندما يأتي الفعل المقاوم أردنياً خالصاً. هنا تتمايز هذه الحسابات قليلاً، فهناك حسابات عنصرية ضد الفلسطينيين لكنها أيضاً تعادي الكيان وتتناسق في حبها لما هو أردني بحبها لأبطال مثل الشهيد ماهر الجازي. أما بعض الحسابات انقلبت على كل مزاعمها وصارت تسيء له وتصفه بالإرهابي، مع أن الإرهاب حتى في تعريفه الأكاديمي يشير إلى عمليات ضد المدنيين، والبطل الشهيد ماهر الجازي فتك بجنود على رأس عملهم، أي أننا حتى لو قبلنا ببعض التعريفات التي تحاول الإساءة لحركات المقاومة ضد الكيان فهي لن تطال من البطل الأردني. ومن وجهة النظر العنصرية لا يعقل أن ينقلب المرء على ابن قومه عندما تكون المسألة مواجهة ضد قوم آخر.

الاختلاف الثاني أعم ونظري، في التركيز العنصري المفرط على المكون الأردني إساءة مموهة للعائلة المالكة مهما حاول العنصريون إخفاء ذلك أو تغليفه، ناهيك عن كون الملكة من أصلٍ فلسطيني وأن ولي العهد فيه دم فلسطيني مما يضع العنصري الأردني في مأزق ويحد من قدرته على المبالغة بنظرياته العنصرية. بهذا يفترق العنصري عن السحيج، فالعنصري إذا كان صادقاً في عصبيته وإيمانه بضرورة اختيار قوميته كأولوية في أفكاره فهو مضطر عاجلاً أم آجلاً إلى الاصطدام مع العديد من الحقائق حول طبيعة الحكم الملكي. وفي تلك اللحظة يبدأ الامتحان الحقيقي لمثل هذه الأفكار أما الآن فهم سيستغلون الضوء الأخضر قبل أن يحمرّ.

نستطيع تتبع مسيرة هذا العنصري، فهو مضطرٌ من فرط حقده على المكون الفلسطيني أن يميل إلى الحكومة ويصبح أداةً تخشى من التصادم مع الدولة خشية تفوق من خشية الدولة من التصادم معها. كما أن الفكر العرقي الأردني بالمجمل هو فكر انبثاقي من الفكر العشائري والأصح هو التركيز على الفكر العشائري، لكن الفكر العشائري ليس فكراً سياسياً لذا من الصعب التعامل معه على هذا الأساس. للعلم، في الزمن السحيق كنت أدعو إلى أن تحترم الدولة الفكر العشائري وتأخذه بعين الاعتبار بشكل أكثر رسمية. أظن أن أي فكر سياسي أردني يجب أن يتقبل هذا الجانب بدلاً من محاولة التنكر له وتجاهل تصادمه مع أي محاولة لبناء دولة مدنية. لكن إلى أن يأتي اليوم الذي تُطبق فيه نظرياتي ودعواتي الفكرية يكفينا الإشارة إلى أن الفكر العشائري مسدود في سياق المعارضة أو رفض أيٍ من السياسات بشكل جذري، ويصعب التنبؤ به لأنه بالمجمل يعتمد على المصالح المباشرة، وبما أن العديد من العشائر لها نصيبها من الحكم فهي لن تضغط على الدولة إلا إذا اختل النصاب والتوازن أو تم المساس بالشعائر والرموز العشائرية بشكل فظ. أو ربما في حالات

صراعات عشائرية تتجاوز الحدود الطبيعية مما يستدعي تدخلاً من الحكومة لترجيح كفة على أخرى، ولو حصل هذا بطريقة تضرب أحلافاً ببعضها كما كانت حال القبائل سابقاً، لكن هذا الاحتمال هو محض إسقاط من التاريخ القديم ويقل واقعيةً مع الزمن، لأن الأجيال الشابة تألف المدنية أكثر فأكثر. لدواعي التنظير لا مانع من ذكر الاحتمالات وهذه احتمالية قد تطل بعد عقود عندما ينحسر هذا "التيار".

أخيراً وليس آخراً في حديثنا عن التيارات السياسية الواضحة، يتبقى الفكر اليساري -وقد يكون تصنيف العلماني أكثر دقة- والماركسي خصوصاً، تأخيري للحديث عن هذا التيار يأتي لسببين أولهما هو أن هذا التيار هو الأقل عدداً وأثراً، وثانياً لأنه أقرب إلى رسوبيات أو امتدادات من كونه فكراً محركاً وجامعاً يحمل قوة محلية. المميز فيه هو أنه يقوم على فلسفة معتبرة ضخمة وله أدبيات لا يمكن الاستخفاف بها بأطرافه الثلاثية، الماركسية والقومية والليبرالية، لكن من وجهة نظر الأفراد لنتتبع قليلاً مسار حياة الماركسي الأردني في القرن الواحد والعشرين.

الماركسي في عصرنا لا يملك رفاهية الاتكال على قطبٍ عالميٍ نِدّي، وكذلك لا يملك الفرصة التاريخية التي حملها أسلافه بتجريب الأحلام الشيوعية فهو لا يعيش في كنف عالم فيه قوة شيوعية يعتد بها ويمكن الرد على أي نقدٍ لها بأن موضع النقد باطل أو صحيح ويمكن الإصلاح لتقبله. ما الذي يفعله إذاً؟ يكت الغبار عن المجلدات ويجمّد الزمن لتجاهل الكثير من الحقائق حول سقوط المشروع السوفيتي الضخم الذي حاولت هذه الأدبيات إقامته سقوطاً يبدو حالياً أنه بلا رجعة. على عكس المشاريع الثورية المختلفة والفكر الإسلامي الذي يمكن أن نتهمه نوعاً ما بالتمسك ببعض الأحلام الغابرة، المقاومة في المنطقة هي مقاومة إسلامية الطابع، ولم يتوقف مشروعها.

الحديث عن أي تجارب شيوعية في أقاصي الأرض لا يفي بالغرض وهي محاولة بائسة للهرب من حقيقة أن الشيوعية لم يعد لها أي مكان في العالم العربي، ويمكن الجدال مطولاً عما إذا كان لها مكان أصلاً، فحتى محاولة التمسح بالجبهة الشعبية يتجاهل الجانب القومي الطاغي على الجبهة. لكن لنفترض لأجل النقاش أن شمس الشيوعية كانت ساطعة وقد أفلت في التسعينيات أي قبل ثلاثين عام، ما زلنا في الليلة الظلماء الطويلة وفي هذه الليلة يبدو أن الشيوعيين لا يملكون من الأمر سوى زخرفة فكرية لمقبرة مشروعهم، ولعل في تحنيط لينين عبرة وتجسيداً لحالة هذا الفكر.

بالطبع لا بد من ذكر الصين التي صارت قوة عظمى تهدد الغرب وأن الحزب الحاكم ما زال يسمي نفسه شيوعياً، الخوض في مدى "شيوعيته" ليس مفيداً هنا، المفيد هو الإشارة إلى أنه لا يسعى كالاتحاد السوفيتي إلى دعم ثورات عمالية في كل أرجاء المعمورة، وليس معنياً بالتبشير بالشيوعية بقدر ما هو يعتمد على بسط النفوذ التجارية، لذا لا ينال الشيوعي في الأردن دعماً مميزاً أو يتكل على الصين في تحقيق طموحاته، بعد.

يجب أن تكون الصياغة مباشرة أكثر حتى لا أترك مجالاً للتعليقات التي تخطئ في فهم هذه الفقرات: أي طرحٍ شيوعي تمت تجربته وأثبت فشله عملياً وتاريخياً في العديد من الدول، أي شيوعيٍ لا يملك طرحاً مميزاً للسياق المعاصر *والمحلي* ويفكر بجدية بمشروع شيوعي جديد هو شيوعي يثبت النقطة من المقالة، وهي ليست تفنيد الشيوعية لو لاحظت أو حتى للانتقاص من بعض تجارب أمريكا اللاتينية، كما أنها ليست لتفنيد الإسلام السياسي بل حتى لا تحاول المقالة تفنيد الفكر العنصري، وإنما توضيح ضيق السياق الأردني وكيف تتقارب كل التيارات وتصب في قناةٍ مسدودة. فالميول الشيوعي هو ميول مضاد للإمبريالية بامتياز، وهو في السياق الحالي حليف طبيعي للمقاومة الإسلامية. المسألة هنا ليست في تقييم الأفكار وإنما بجدوى التيارات وانعكاسها على عمل واقعي.

بهذا يمكننا أن نتصوّر شاباً مثقفاً شعر بنقمة على هذا العالم الظالم، وانكب على الكتب ليكتشف هذا الفكر وأدرك أن فيه إجابة شافية إلى حدٍ ما، لكنها كتبت في وقت سابق وحملت قوة تفسيرية قبل التجربة، أما اليوم بعد التجربة فالانتماء الكلي لهذا التوجه يعني أن الجهد سيتبدد في فكرٍ منتهي الصلاحية، والفساد ينعكس حتى على الأفكار التي يعبّر عنها بعض المحسوبين على الماركسية، فهم لا يحتكمون إلى نموذج شيوعي رصين بل يرشّون أفكاراً من نماذج ثانية بمصطلحات ماركسية ويعتبرون أن واجبهم انتهى.

التيار اليساري بالطبع أوسع من الماركسية، هناك ليبراليون يميلون للغرب ويصعب تصنيفهم على محور المعارضة أو الولاء للحكومة، بعض هؤلاء يعادون الصهيونية بارتداد غريب، أي أنها معاداة لم تنمُ بسبب ارتباطهم المباشر أو غير المباشر بفلسطين وإنما استوردوها لأن اليسار الغربي يعادي الصهيونية. هذه المجموعة أيضاً مميزة بأنها تجمع بين التأثر المفرط بالغرب ونقد الغرب، نقد مستورد أيضاً. غيرهم من المتأثرين بالغرب قد تأثروا بأفكار صديقة للصهيونية خصوصاً لأن الصهيونية في سعيها لاختراق كل الزوايا الإعلامية نالت من الكثير من المؤثرين على الإنترنت.

قد يشكل الليبراليون ورقة ضاغطة خصوصاً لو حققوا كوابيس الإسلاميين وصاروا منفذين لأجندات خارجية، وبهذا أتحدث عن أجندات ثقافية لا تتعلق بالقضية الفلسطينية. أما في سياق المقالة نشير إلى أن أتباع هذا التيار هم مثل الجهاديين يركزون جهودهم على السفر أو أنهم مثل الإسلاميين يركزون أفكارهم في صراعات وهمية ليست أكثر من ظلال للصراعات الثقافية الغربية.

أخيراً هناك الفكر القومي الذي وضعته تحت الجناح اليساري فقط لأنه إلى يسار الفكر الإسلامي، مع أن الفكر القومي ينتمي لمظلة يمينية في العالم الغربي وهي مظلة قد تجد بعض المثقفين قد تأثروا بها إلى حد كبير، المفارقة هي أن هذا التيار القومي نادر جداً بصورته الخالصة لكن القضية الفلسطينية بجوهرها هي قضية قومية، يمكنك قراءة الجزء الأول والثاني لفهم بعض أعمدة هذا الزعم، أما في هذا الجزء يكفي الإشارة السريعة لعدم وجود "تيار" قومي وبأحسن الأحوال هناك أفراد قوميون. وهناك أيضاً تحت لواء اليسار بقايا الأحزاب العروبية ولكنهم أقرب عمرياً إلى الصدام مع ملائكة الموت من أي صدام مع الحكومة.

طريق مسدود لكنه الأقرب للانفراج

من الصعب قياس عدد الأفراد المنتمين لكل هذه التيارات دون دراسات متقنة، وهي دراسات تتطلب قبلها بعض التنظير لرسم حدود التيارات نظرياً، وهو الشيء الذي كنت وما زلت أدعو لتحقيقه عبر مقالات مثل مقالة التصابي التصنيفي. وقبل مجيء ذلك اليوم وتوفر الفرص للمزيد من التنظير والدراسات لا يسعني إلا الإشارة للتيار المبهم الذي أرى الأغلبية حولي تنتمي له، وهنا أشير إلى فئة المهتمين بالسياسة دون الانتماء للأحزاب وحتى غير المهتمين المضطرين للتعليق على الأحداث السياسية لأن رفاهية تجاهل السياسة ليست موجودة في بلاد الشام. أي أننا لو أعدنا الجموع التي استثنيتها في مطلع المقالة سيجدهم يتبعون هذا التيار ولا ينتمون للتيارات المذكورة، هذا الزعم بالطبع تقديري ويحتاج لدراسة لتثبته.

نختم بالمرور السريع على التيار المبهم الذي ذكرته في عدة مقالات وهو تيار لا يمثله أي حزب، لكنه التيار الذي ينتمي إليه معظم المهتمون بالسياسة إن لم ينتموا لأيٍ من الأحزاب، وهذا التيار المبهم ليس مفرغاً من الأفكار لكنها أفكار تتراقص وتتناقض لأنها ما زالت في عالم النظريات ولا يمثلها أي طرف على أرض الواقع. هذا التيار يسحب من جميع التيارات حوله الأقاويل والمبادئ، ويصعب جداً التمييز ما إذا سرق منهم هذه الأفكار وتشكل بجمعها أم أن كل التيارات ذُبحت واختلطت أشلاؤها وأحشاؤها أو قام هذا التيار مثل الزومبي من مقبرة الأيدولوجيات.

وبما أن التيار مبهمٌ يصعب تحديد معالمه والمبادئ التي يسير عليها، لكن يمكننا تمييز "السلويت" الخاص به، ويمكننا الجزم بأنه منتشر في الدول الملكية أكثر من انتشاره في غيرها، كما أنه ليس تياراً موالياً للحكومات بمعنى الكلمة ولو كان كذلك لأدرجناه تحت قسم السحيجة. ولو كان كذلك لما كانت الأغلبية تقف مع مفهوم المقاومة وتتوق لدعمها كما أثبتت عملية البطل الشهيد ماهر، أو تعترض على حكوماتها لو سمحت لها بالتعبير الصادق. لذلك يجب أن نوضح بأن هذا التيار ليس سيئاً بالضرورة لكنه ليس تياراً ممثلاً في أي حزبٍ موجود أصلاً، والمساوئ هي في وجود تناقضات لا تطفو على السطح ولا ينتبه لها المنتمون لهذا التيار لأن الأفكار ليست مجموعة في مدرسة فكرية واحدة، ولهذا السبب أيضاً يتسرّب الاهتمام السياسي ويتبخر قبل أن يُترَجم إلى أي نشاط حقيقي، فأصحاب هذا الفكر يعيشون في زمن الإنترنت وهذا الإنترنت يسمح لنا جميعاً بخوض معارك افتراضية، وأنا لست من المقللين من أهمية احترام الفسيفساء بين الواقع وفضاء الإنترنت، لكنني أزعم أن هناك درجات من وهمية المعارك الافتراضية، بعضها ليس وهمياً إلا بمعنى أنه لا يحصل بالأيدي، لكنه صراع فكري تبذل المليارات لتوجيهه ويعكس المعارك الواقعية والأطراف المتنازعة.

أما هذا التيار المبهم فلا يمثّله أحد حقاً، فتجد التابعين له يتنقلون في دعمهم أو لا يتعجبون من قول بعضهم بأنهم مع المحور في حربه ضد الكيان ولكنهم ضد المحور في الحرب السورية مثلاً وكأنها مباريات رياضية، أو أنهم مع المقاومة ضد الكيان لكن ضد استخدام أجوائهم في ضربة ضد الكيان، أو أنهم مع الثورية لكنهم أرانب في بلادهم، وعندما يقولون أنهم مع الثورات فهم يشيرون إلى ثورة في عالم المُثُل لأنهم لا يصرحون بوقوفهم مع فصائل معينة ويكتفون بمقولات عن وقوفهم مع الشعوب، وللحظة تستنتج أنهم ديمقراطيون لكنهم فجأة يتحدثون عن الخلافة أو قد يتحولون إلى أنصار الملكية في دول ثانية. كل هذه الأفكار ليست أفكاراً متناقضة تظهر كآثار جانبية لتفاعل الأحزاب، بل هي أفكار يخط بعضها مثقفون مشوهو الوجوه والعقول، لرؤية تخبط بعضهم مثل الشنقيطي أنصح بقراءة مقالته عن فقه الثغور وفي تعليقي عليها في سلسلة الطواف – أوراق الخريف.

وكي نختم المقالة نستطيع التوصل إلى مؤشر نحو الطريق الصحيح، وأزعم أنه في تشريح هذا التيار المبهم وكشف تناقضاته لإبطالها، وبذلك يمكن أيضاً انتزاع الأفكار السليمة منه كي تصب في مدرسة فكرية جديدة أو حزبٍ جديد يمزج التطلعات المحقة مع المنطق السليم ويهذب العقيدة الفكرية. وعلينا أن نتنبه لسهولة وخطورة طرح أسئلة بأثر رجعي ونتظاهر كما لو أن ما يحصل في هذه الحرب كان متوقعاً وكان التجهيز لها على وجه الخصوص واجباً نضالياً، لا يمكننا الجمع بين هذا المزعم وبين حقيقة أن الطوفان بحد ذاته كان فعلاً لم يخطر على بال أحد خارج دائرة من خطط له، ولذلك كانت ردة الفعل في كل موقع مبنية على الزخم الفكري أو على الخواء الفكري المتوفر أصلاً. وتكشفت هزالة الأحزاب ومدى تماهي الحكومات العربية مع الظلم العالمي وهذا أيضاً كان صادماً مثل صدمة الطوفان، ومع أن البعض يزعمون أن هذا متوقع لكن هذا الزعم باطل لأن الشعوب المضطربة اليوم تضطرب خصوصاً لأنها ترفض هذه الدرجة من التواطؤ ولو أن الشعوب كانت متفقة مع حكوماتها على نهج التبعية للأحلام الصهيونية التي تهينهم وقتما شاءت لما كان الرأي السائد اليوم بأننا ارتكبنا أخطاء فادحة.